الكاتب: د/كمال بيرم
جامعة محمد بوضياف المسيلة

عنوان المقال: الأوبئة والأمراض بمنطقة المسيلة في ظل الاحتلال الفرنسي 1841-1945

biremkamal@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/05/01 تاريخ القبول:2020/05/26 تاريخ النشر: 2020/06/30

الأوبئة والأمراض بمنطقة المسيلة في ظل الاحتلال الفرنسي 1841-1945

ملخص

شكلت فترة الاحتلال الفرنسي لمنطقة المسيلة محطات من البؤس والحرمان وتفشي الأوبئة والمجاعات، جراء السياسة الاستعمارية وما تبعها من تحولات عقب انتقال ملكيات الأراضي ووسائل الاستغلال من أنماطها وأطرها التقليدية إلى النظام الكولونيالي الرأسمالي.

وحملت الذاكرة الجماعية المحلية ومحفوظات الأرشيفات المحلية والأجنبية الكثير من الوقائع والحالات الصحية التي سادت المنطقة منذ بداية الاحتلال مرورا بمراحل توسعاته وما صاحبها من مقاومات شعبية عنيفة، والتي نحاول رصدها في هذه الورقة البحثية بالكشف عن بعض محطاتها وتأثيراتها الاجتماعية على المنطقة.

الكلمات المفتاحية: الأوبئة الصحة، المسيلة، الاحتلال.

Abstract

The period of the French occupation of the region of M'sila constituted stations of misery, deprivation and epidemics and famines, due to the colonial politic and the transformations, which followed the transfer of landed properties, and means of exploiting their traditional models, and frameworks in the colonial capitalist system. Local collective memory and the holdings of local and foreign archives, have demonstrated many health facts, and conditions which have prevailed in the region since the beginning of the occupation, and through the stages of its expansion and the violent popular resistance, which has accompanied, which we are trying to monitor in this research Paper, and reveal its social effects

Keywords : epidemic, occupation, Msila, the health.

تقديم

لا تزال الدراسات الاجتماعية المتعلقة بجوانب الصحة والاوبئة بالجزائر[1] تأخذ منحى متواضع في البحث والاهتمام بالنظر الى الكم القليل من المنجز البحثي حولها مقارنة بالأبحاث المتعلقة بالأحداث السياسية، خاصة ما تعلق بالتاريخ المحلي، في ظل نقص المدونات التاريخية او المخطوطات، ويعتبر الوصول اليها امر شاق. وإذا كانت كتب النوازل قد تركت لنا ما يفيد الكثير من الوقائع الصحية في فترات التاريخ الحديث لبعض الحواضر المعروفة كقسنطينة ومازونة وغيرهما، فالأمر يختلف عن باقي الحواضر والمناطق الأخرى التي يبقى تاريخها مغمورا في كثير من جوانبه الى اليوم، ومنها منطقة المسيلة التي نحاول تتبع أوضاع سكانها الصحية و وقع الاحتلال واثر سياساته على صحة وحياة الأهالي منذ احتلالها الى الحرب العالمية الثانية.

يجدر بالذكر أن موضوع الأوبئة يتميز بتعدد جوانبه وتشعب امتداداته الطبيعية والبشرية، بحيث تتداخل مجموعة من العوامل في تفسير الأوبئة عموما والأوضاع الصحية تحديدا، منها البيئي بالمعنى الشامل للمفهوم، ومنها الاجتماعي والاقتصادي ومنها السياسي والعسكري والحضاري، الذي يبرز كثيرا في موضوع بحثنا هذا فالظروف التي أنتجت الأوبئة تختلف بتغير مجالها الجغرافي وسياقها التاريخي ومقدار تدخل العوامل السالفة الذكر ومدى تفاعلها.

تذكر الكثير من كتب التاريخ والرحالة مسالة انتشار الأوبئة والأمراض في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، فقد أصاب وباء الطاعون مدينة الجزائر ومدن أخرى خلال القرن السادس عشر أودى بحياة كثير من الناس حتى بباشاوات الجزائر كصالح رايس[2]،كما أصاب نفس الوباء معظم أرجاء الجزائر سنة1787 والذي أدى الى الاف الوفيات و اضطر الباي محمد الكبير بسببه مغادرة وهران لعدة أشهر. والوباء الذي امتد سنوات 1817-1822 والذي سبب خلو المدن بشكل رهيب كعنابة وجيجل وغيرهما.[43]

التقارير الفرنسية الأولى حول الوضع الصحي بالجزائر بداية الاحتلال والتي معظمها كانت موافقة للحملات العسكرية الأولى، تشير من خلال وصفها للوضع العام إلى حالات عديدة من اوبئة الطاعون والكوليرا التي أصابت العديد من المناطق بسبب العناصر الوافدة من فرنسا واسبانيا او جبل طارق مثل الطاعون الذي أصاب مدينة وهران سنة 1834 واصاب الجزائر سنة 1835 بسبب قدوم بعض المستوطنين من تولون ومرسيليا بفرنسا ،

كما كانت سنة 1849 سنة انتشار وباء الكوليرا بعديد المناطق كبوسعادة والحضنة ومدن بالغرب الجزائري مثل وهران ومستغانم ، وتلمسان وبلعباس ، وتكرر الوباء فيما بعد عدة مرات أدى الى المئات من الوفيات في صفوف الجيش الفرنسي والسكان بشكل اكبر[5].

شكل الاحتلال الفرنسي لأقاليم الجزائر وتيرة متسارعة في انتشار الامراض والاوبئة المنقولة من الضفة الشمالية لحوض المتوسط الى الضفة الجنوبية خاصة في فترة توسعاته بين 1834-1871 والتي أدت الى تدني كبير لمستوى معيشة السكان، بعد فقدانهم لمصادر الرزق المصادرة، ويمكن إضافة عامل التقلبات المناخية الصعبة التي في الغالب هي الوضع السائد لبعض المناطق الداخلية كما هو الحال لمنطقة المسيلة التي هي محل بحثنا هذا. [6]

بداية الاحتلال و انتشار الأوبئة بمنطقة المسيلة

شهدت منطقة المسيلة منذ النصف الثاني من القرن 19 وطيلة النصف الأول من القرن العشرين حالات متكررة من الأمراض والأوبئة، التي أصبحت من الوضعيات المألوفة لدى سكان المنطقة. لكن لم تكن بالصورة المرعبة التي اتخذتها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فخلال الحملات العسكرية التي شهدتها منطقة المسيلة كتبت عدة تقارير عن عدد الوفيات التي أصابت قوات الاحتلال الفرنسي، جراء انتشار وباء الكوليرا، مثل حالة 1849 (التي أصيب فيها العشرات من قوات الجنرال Serrokka،.و الضابط Pein بان، في حملاتهم ضد قوات ثورة ابن شبيرة ببوسعادة وجنوب منطقة المسيلة سنة 1849.

كما يقدم لنا الشيخ ابن العربي في بعض تقييداته[7] تفاصيل مثيرة حول وباء الكوليرا بمنطقة المسيلة سنوات الستينات فيقول:

"انه في شهر ربيع الأول من عام 1282ه الموافق 1865 نزل الوباء المسمى عندنا بيشحيط في المسيلة فمات بسببه منها نحو الأربعة مائة نفس ....ثم يضيف انه حكي ان بسكرة في هذا العام مات منها ثلاثة الاف نفس هي وما حولها وفي هذا العام كثر الريح والغبار حتى يظلم النهار..فكانت الموت للأنفس كثيرة والبعض يموت الدوار كله"

وجاء في تقييد اخر لأحمد ابن العربي فيوصف الوضع الاجتماعي ببلاد الحضنة عموما فيقول:**"ان في عام 1285ه وقع قحط عظيم وسلط الله عدم الشبع على الخلق وغلت الأسعار حتى صار صاع القمح بثلاثين ريال ،حتى باعت الخلق الأثاث ورخص المال حتى ان البعير قيمتها ارخص من صاع الشعير واما الغنم فماتت وتفرقت التلقودة واكلت القطف والعرعار وكثرت الموت وهاجت في كل البلاد حتى ان الفرقة في بعض الاعراش**

يموت منها النصف واصبح الناس موتى في الشعاب والاودية حيث تجد فرايس الموتى في كل موضع واكلت الناس الكلاب والدواب "[8]

وفي سنة1864 عندما اندلعت انتفاضة منطقة المسيلة بقيادة إبراهيم بن عبد الله بن بوعزيز قايد عرش السوامع ، تكبدت قوات الجيش الفرنسي أعداد من الوفيات لنفس المرض الذي أصاب المنطقة .[9]كما شهدت منطقة الحضنة بكاملها انتشار وباء الكوليرا الذي رافق سنوات الجفاف و العوز 1866-1868.وترك بصماته القاسية على التجمعات السكانية الهامة للمنطقة ،حيث بدأ في الانتشار منذ 11 جويلية 1867 وعم مختلف مناطق الجزائر .و كانت مقاطعة سطيف لوحدها التي كان يقطنها سنة 1867 ما يزيد عن 146000 نسمة، قد تعرضت إلى أكثر من 5300 حالة وفاة ،أي ما يزيد عن نسبة 3.6 % من مجموع السكان ، بينما كانت منطقة منطقة المسيلة من أهم المناطق التي مسها الوباء مثل أولاد عدي بـ 178 وفاة ، أولاد دراج بـ186 وفاة ، المسيلة بـ280 وفاة وغيرهم .[10]

وتعتبر فترة الصيف الحارة أهم فترات انتشار الأمراض و الأوبئة بمنطقة المسيلة كالتيفيس و الرماد العيني و الكوليرا .[11]وإذا كان حال الأهالي قبل انتصاب الحكم المدني بمنطقة المسيلة سنة 1871 تحت رحمة الاحتلال و المناخ ، فان وضعهم لم يزد إلا سوءا بقدوم المعمرين الجدد وتكوين الحكم المزدوج بها منذ 1885، لذلك تكررت حالات الأمراض الفتاكة التي انتشرت وعمت قرى و أرياف منطقة المسيلة .

وباء سنة 1867بمنطقة المسيلة

أصاب الوباء الذي مس الجزائر ككل خلال سنة 1867 منطقة المسيلة واريافها ، وبالرغم من الأسباب التي تحاول بعض الكتابات الارشيفية لضباط الاحتلال اعتمادها لظهور وانتشار الوباء ،سواء ما تعلق بالظروف الطبيعية من جفاف وجراد ، الا انها تغفل دور الاحتلال ومؤسساته الاستيطانية في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الصعبة التي ال اليها الأهالي والتي افقدتهم وسائل الحماية الغذائية او الصحية .

كتبت التقارير الفرنسية في الوثائق المختلفة لهذا الوباء، أن الإصابات الأولى لوباء الكوليرا قد ظهرت في صيف 1867 بمدينة المسيلة التي تعتبر المركز الحضري للإقليم وكتب حينها طبيب الدائرة العسكرية للمسيلة السيد موسmousse ان المرض ظهر يوم 07 جويلية 1867في يوم الأحد بعرش السوامع احد فروع عرش أولاد دراج، عقب انعقاد السوق التقليدي ، وبعد يومين أصاب سكان مدينة المسيلة في الأحياء اليمنى لوادي القصب، وأدى

الوباء حسب التقرير إلى وفاة 72 شخص بين تاريخ 07 إلى 14 أوت ، بينما توفي 04 أوروبيين فقط ، كما أشارت التقارير أن الأوبئة بلغت على امتداد 18 يوم و أودت إلى 144 وفاة من الأهالي بين تاريخ 14 إلى 18 أوت .امتد الوباء إلى منطقة بوسعادة يوم 17 جويلية، حيث كتب الطبيب دوفيل Duvelعن انتشاره في الفترة الممتدة بين 17 جويلية إلى 08اوت، و أرجعت الهيئة الصحية سبب انتقال هذا الوباء إلى الروابط الاجتماعية و الاقتصادية بين أهل بوسعادة وأهل المسيلة، خاصة في مسألة العلاقات العائلية و التجارية، التي تؤدي عادتا إلى الإيصال و الاحتكاك و التواصل، ساهمت عناصر طبيعة أخرى في سرعة انتقال الوباء إلى الجفاف و الحرارة خاصتها أيام هبوب رياح السيروكو (الشهيلي) بينما يغفل عن دور الاحتلال في ذلك.[12] .هذا مع العلم أن القيادة العسكرية و الإدارية لمحيط بوسعادة كانت مكونة من ضباط المكتب العربي و الجنود تقارب 98 شخص ،في الوقت الذي بلغ مجموع المعمرين 77 أوروبي، في حين بلغ مجموع الأهالي 6096 نسمة .[13]

أكد الطبيب المسؤول عن متابعة هذا الوباء من مدينة المسيلة انه انتشر بداية الشتاء في مناطق برج بوعريريج ، وكان انتقال بعض الجنود من المسيلة وهم مصابون بالمرض من الأسباب التي أسرعت في انتشار الوباء الذي قضى بمنطقة البرج وحدها : 470 وفاة ،منها : 45 رجل و 59 امرأة ، 62 طفل و 54 فتاة .[14]

تؤكد جل التقارير الصحية أن المناطق المصابة هي الأكثر فقرا وحرمانا وبها اغلب الضعفاء و البؤساء الذين صودرت املاكهم واثقلتهم ضرائب الحرب والمقاومات ،فقد أشارت التقارير في إحصائيات لبعض الوفيات بالمنطقة التي كانت تخضع لخلافة المقراني بمجانة مثل برج بوعريريج (897 وفاة) و سطيف (211 وفاة) .وقدرت التقارير مجموع الوفيات بإقليم الهضاب العليا سطيف بـ 8394 وفاة من مجموع السكان 146000 نسمة تقريبا .[15]

في اغلب التقارير وجدنا نفس الملاحظات ونفس الإشارات، بحيث أن وباء الكوليرا انتقل من الجنوب إلى الشمال، ونفس الأسباب أدت إلى نفس النتائج. القرى أكثر تعرض للوباء هم الأكثر فقر وحرمان و الأقل نظافة و الأكثر تجمع و احتكاك. الوفيات تصيب في اغلب الحالات الفقراء. كل الذين كتبوا هذه التقارير هم ضباط سامون أو أطباء اجمعوا أن انتشار الوباء كان وراءه انتقال الإفراد واتصالهم ببعضهم البعض .

هكذا كان وباء سنة 1867 أكثر خطورة في ظل عدم تعود الأهالي على مثل هذه الحالات أو توقع انتشارها السريع. وعادة ما تكون عملية تسارع الوفيات عقب قدوم شخص أو أشخاص من مناطق مجاورة مصابة، وفي كل الحالات ضاعفت حالة الفقر والعوز والحرمان والبؤس من عملية انتشار وتسارع وفيات الجزائريين. غير أن ما أكدته هذه التقارير أن الوباء الذي أصاب الجزائر ككل إنما بدأ من مدينة المسيلة سنة 1867 وهذا الامر الذي لم تشير اليه الكتابات التاريخية حوله [16]رغم الأمراض والأوبئة التي صاحبت منطقة المسيلة منذ بداية الاحتلال 1840 ،فان الإدارة الاستعمارية لم تحاول تخفيف وطأة هذا الوضع،او تفكر في إقامة عيادة طبية إلا سنة 1904 عندما افتتحت أول عيادة خاصة بالأهالي (infirmerieindigènes) في 16 أكتوبر 1904 جهزت بـ 17 سرير و 3 عمال صحة. وقد بقيت هذه العيادة محدودة الخدمة وغير قادرة على تأمين صحة السكان خاصة في ظل بعد المسافات بين مركزها والدواوير من جهة،ونقص الدعم البلدي المالي لها من جهة ثانية.

كما وقعت نهاية القرن التاسع عشر كوارث متنوعة منها الزلزال الذي أصاب المنطقة سنة 1890 ويتكرر سنة 1895 وانتشار وباء الكوليرا المميت بكامل منطقة الحضنة ، أدى إلى عدد كبير من الإصابات التي قاربت 500 حالة تحولت منها 416 حالة إلى وفيات خصوصا في المناطق الحضرية كمدينة المسيلة (177 وفاة) كما يوضحه الجدول التالي [17]:

جدول خاص بانتشار وباء الكوليرا 1893 بدواوير المسيلة.

المناطق	عدد الإصابات	عدد الوفيات
سلمان	29	10
أولاد عدي	5	1
المسيلة	الأوروبيين: 7	3
	الأهالي : 282	282
المطارفة	59	20
أولاد منصور	35	14
السعيدة	82	28
مسيف	18	8
ملوزة	2	2

في قراءة لأرقام الجدول مقارنة بالتقارير الاجتماعية الرسمية و تقارير قياد دواوير منطقة المسيلة المرتبطة بالوفيات و المعيشة، لا يبدوا تطابق بين الحالتين ،لان الأرقام المبينة في الجدول لا تعكس الوضع الحقيقي للأهالي على جميع المستويات و الأصعدة، وفي نفس الوقت لا تعطي الصورة الواقعية لدور العيادة الطبية الصحية اتجاه الأهالي .[18] لقد أدى وضع الأهالي الصعب إلى اعتماد السكان بمبادرة لأعيان وذي الدخل إلى محاولة التكفل الاجتماعي من خلال إنشاء جمعيات التعاون و التكافل الاجتماعي لتعويض حالات البؤس و المرض الذي أصبح يلاحق السكان. وقد حصرت إدارة هذه العيادة المعطيات الاستشفائية لدورها بين سنوات 1904-1914 [19]وكان كالتالي :

جدول خاص بحالة الخدمات الصحية بالعيادة بين 1904-1914.

الحالات	1904	1906	1910	1911	1912	1916	1917	1918
عدد الممرضين	3	3	3	3	3	03	04	3
عدد المرضى:								
رجال	143	161	174	162	170	174	205	120
نساء	31	54	25	44	56	41	53	39
أطفال	14	22	34	36	37	27	27	11
عدد الوفيات	1	3	5	4	5	6	5	6
إصابات العيون	18	37	20	18	20	30	32	41
إصابات الهضم	48	61	24	20	36	18	15	11
إصابات الجلد	34	39	56	97	87	71	14	18
عدد الفحوصات الطبية	150	200	1400	1927	840	1701	1080	350

ورغم الويلات التي أعقبت الحرب العالمية الاولى من مجاعات و أوبئة، فان الفترة الممتدة بين 1918 إلى غاية 1949 لم تشهد خلالها منطقة المسيلة زيادة في الإطارات الصحية ،ولم يزد عدد المرضين عن ممرضة واحدة وعون صحي واحد .[20] ومرد ذلك استقرار عدد المعمرين بمركز الاستيطان الوحيد بها أي بالمسيلة من جهة ومن جهة ثانية لم تكن لدى سكان الحضنة عادة الاستشفاء بمراكز الاحتلال .

ومما ضاعف في بؤس الأهالي صحيا ضعف الإنتاج الفلاحي بعد تمكن المعمرين من مصادر السقي والأراضي الخصبة من جانب،، وصعوبة المناخ من جانب اخر فارتفعت حالات الحمى التي تؤدي غالبا إلى وفيات كثيرة مثل ما حدث سنة 1918 .[21] وكانت السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى جد صعبة من حيث استمرار انتشار وباء التيفيس بمحيط مدينة المسيلة.[22]

الأوضاع الصحية بمنطقة المسيلة بين الحربين(1919-1939)

لم يتغير كثيرا وضع منطقة المسيلة الصحي بعد الحرب العالمية الأولى بسبب تكوين مركز الاستيطان الأوربي بالمدينة من جهة حيث سادت وضعية اقتصادية صعبة صاحبت سنوات بين 1918الى-1923، مما جعل المنطقة محل انتشار عدد من ألامراض و الأوبئة الفتاكة ، مثل الرماد العيني و الحمى القلاعية أو البالوديزم PALUDISME خاصة بين الأطفال التي تتراوح أعمارهم بين 10-15 سنة [23].

كان الانتشار واسع بين أطفال الأهالي، في حين لم تشمل التقارير الصحية و لا حالة واحدة عند الأطفال الأوروبيين الذين وصل عددهم إلى 101 طفل ،كما استمرت حالة باقي المعمرين جيدة إلى غاية بداية الحرب العالمية الثانية .[24]صاحبت الأمراض و الأوبئة في الفترة الممتدة بين الحربين بمنطقة المسيلة حالات الفقر و العوز و المجاعات مع حالات الجفا،ف ونقص الإنتاج الزراعي .*ففي مقال بعنوان "المجاعة في البلد " كتبت مجلة الكفاح الاجتماعي [25] عن وضعيات الأهالي الصعبة في منطقة المسيلة سنة 1923 ،حيث انتشر الفقر وشمل كل من منطقة برج بوعريريج إلى بوسعادة ، المسيلة ، كانت الإدارة الاستعمارية تقوم بتوزيع كميات محدودة من الخبز لا تزيد عن 70 غرام لكل فرد يوميا ، ولم تخفي المجلة تواطؤ الإدارة الاستعمارية المحلية مع أرباب العمل على استغلال سكان الحضنة بشراء عقاراتهم لشراء الخبز و الحبوب، وتضرب لذلك مثلا لذلك بسكان المسيلة اين يبدو الدور المزدوج للكوكون و الإدارة في القضاء على أرزاق الناس و البؤساء .[26]

تعد الأمراض و الأوبئة بمنطقة الحضنة كحال باقي الجزائر من الحالات الغير محدودة لانها واكبت حياة السكان فترة طويلة ،ومن أهمها أمراض العيون و الأمراض المرتبطة بالفقر كالتيفيس و الكوليرا ،وقد أحصت التقارير الصحية أنواع عديدة من الأمراض مثل الرمد العيني ، أمراض الحنجرة ، أمراض الجلد وغير ذلك[27].

ومن جانب آخر قدرت الإدارة المحلية عدد الفحوص التي قدمتها المصحة للأهالي خلال سنة 1917-1918 بـ 1501 حالة علما أن وضع المنطقة كان أصعب قبل الحرب العالمية الأولى حسب الإحصائيات الخاصة بعيادة الأهالي بالمسيلة.[28] بينما استمر فيه الوضع الصحي بالمعمرين في نفس الفترة على ما يرام، حيث لم نعثر في وثائق الأرشيف عن أي حالة من حالات الأوبئة المنتشرة أو الأمراض التي أصابت الأهالي ،قد أصابت مركز استيطانهم بالمسيلة لم نجد سوى إشارات قليلة عن ذلك مثل إصابة ثلاثة من المعمرين بمرض العيون سنة 1913.

الحرب العالمية الثانية وذاكرة عام العربة بالمسيلة1941-1942

شهدت مدينة المسيلة خلال الحرب العالمية الثانية وضعا استثنائيا ،من حيث انتشار الفقر المدقع و الأوبئة الفتاكة التي تركت بصمات عميقة في ذاكرة السكان الجماعية ، و التي لم تشهدها مناطق أخرى في الجزائر بنفس الحدة و الوطأة إلى بداية 1954 .[29]لقد ساهمت عوامل عديدة في تردي حالة أهالي منطقة المسيلة خلال الحرب العالمية الثانية ، فقد ألحق الجفاف المستمر بين 1937 إلى 1954 حالات إضافية من الفقر التام و الكلي و الشامل لسكان منطقة المسيلة ، بعد أن جردوا خبراتهم وحرموا من أراضيهم وتشتت أرزاقهم وبيعت حيواناتهم من اجل لقمة العيش التي ضاقت من اجلها السبل .و إذا كانت التقارير الرسمية قد اغفلت نهائيا تسجيل أصعب فترة عاشتها جهة من الحضنة=الغربية و هي منطقة المسيلة خلال الحرب العالمية الثانية. فان الذاكرة الجماعية المحلية تتذكرها بتفاصيلها [30]. مثلت سنوات الحرب العالمية الثانية أقصى وأشد فترات الوجود الاستعماري بمنطقة المسيلة وارتبطت أحداثها ومآسيها بذاكرة سكان المنطقة الذين جعلوا منها مرحلة هامة لبشاعة الظلم الاستعماري والتميز العنصري بين الأهالي والأوربيين الذين استوطنوا بمركز البلدية بالمسيلة.لقد تلقت مصالح الإدارة الاستعمارية بمنطقة المسيلة من الوالي بقسنطينة التعليمات الخاصة بتنظيم الحياة اليومية للأهالي والاوربين الفرنسيين الذين بلغوا بداية الحرب 215 نسمة حيث لم تكن بالمدينة آية حامية عسكرية لحمايتهم ، لذلك عمدت

السلطة المحلية على تجنيد كل عمال البلدية والشرطة والفرسان لمختلف الدواوير القريبة من المدينة و إقامة مخابئ لأوربيين خوفا من غارات قوات المحور[31] .وتم تكوين :

مركز علاج أولي: يقوم بإشرافه عمال المصحة الملحقة بالمسيلة و مركز إنقاذ ومركز تنظيف

مركز نقل بالسيارات وتكونت فرقة خاصة بالأوبئة والأمراض لمركز الاستيطان بالمدينة وفرضت إجراءات أمنية على محاصيل الحبوب خوفا من أعمال إجرامية[32].كما شددت الخناق على الأهالي بواسطة القياد ومراقبة تحركاتهم وأنشطتهم وأمرت القياد بار سال تقارير مفصلة عن وجود أي عنصر من أحباب البيان والحرية[33].وفرضت تجنيد الأهالي في جبهات القتال بعد أن رفضوا العمل في الجندية إلى جانب فرنسا[34].كما كانت مدينة المسيلة محطة لعبور قوات الحلفاء من الغرب نحو تونس جوان 1943 حيث تم تخصيص مركز لقواتهم بالبلدية[35]بأمر من الوالي بقسنطينة.

وقام القياد بحراسة المنطقة وإخبار السلطة بكل غريب أو جندي فار[36] ، بعد أن تلقوا التعليمات بإعدام كل سجين يتم القبض عليه[37]. إن الشغل الشاغل للإدارة الفرنسية هو امن الأوربيين وحياتهم بالمنطقة فقد كانت الحرب العالمية الثانية عاملا في استغلال المعمرين سجناء الحرب من الألمان والإيطاليين الذين تم القبض عليهم ببلدية المسيلة، والذين بلغ عددهم 164 سجينا وسخروا في أعمال الفلاحة في ضيعات المعمرين ببلدية المسيلة[38].

أما الأهالي فقد عمقت ظروف الحرب مأساته موزادت في تعاستهم لدرجة فضيعة لم تشهدها المنطقة في تاريخها من خلالها حالات الوفيات والفقر والحرمان بعد أن فقدوا كل شيء لديهم من مواشي وممتلكات[39].

وتكشف تقارير القياد لمختلف دواوير بلدية المسيلة [40] حالات البؤس ونقص الغذاء حتى للمواشي التي بقيت على الحياة تقتات على الحطب اليابس فقط[41]، إن ما أصاب سكان بلدية المسيلة خلال الحرب العالمية الثانية خصوصا سنة 1941،كان يستلزم تدخلا محليا ومركزيا فوريا وبجدية كبيرة فقراءة تقرير عن احد سكان المدينة ندرك ذلك الهول الذي أصابها بحيث يذكر أن حالات الوفيات للسكان بسبب الحمى خلال شهر واحد (رمضان 1941) كانت بمعدل 25 وفاة يوميا، في الوقت الذي لم تقم السلطات المحلية بأية مبادرة لفائدة السكان ولو بتمكينهم الحصول حتى على كفن الموتى، بسبب انعدام الأقمشة في كامل

المدينة وتشير الشهادات إلى أن الكفن يخيط عدة مرات لكفاية الميت ووصل الحال ببعض السكان إلى عدم استطاعتهم دفن موتاهم لعدم تمكنهم من الحصول على قماش الكفن. وقد وصل عدد وفيات سنة 1945 بالبلدية 2897 من جملة 3611 مواليد.

لقد كان الوضع المأساوي الذي شهدته البلدية ومركزها نتيجة السياسة الاستعمارية التي جعلت المعمرين يحتكرون الخيرات والمياه والثروة، ويفقر الأهالي ويحرمون من الشغل والغداء وهذا ما جعل أعيان فرنسا من القياد يتداركون هذا الوضع في تقاريرهم نهاية الحرب في ضرورة إعطاء الأهالي فرص أحسن للعيش بتوفير العمل ،وفتح ورشات الشغل وإمدادهم بقنوات مياه السقي وطرق المواصلات وتكوين فرق لتنظيف مدينة المسيلة وفتح مطاعم خاصة بالمحتاجين والمعطوبين وضرورة تموين الفلاحين ببذور الحبوب للقضاء على البؤس والحرمان والأمراض[42].

فخلال شهر رمضان1941 [43] حل بالمنطقة وباء التيفيس الخطير الذي صاحب حالة الجوع و الفقر وانتشار القمل و الجراد. و أدى إلى حالة اجتماعية تكاد تكون استثنائية من تاريخ منطقة المسيلة،وقد كتب عنها احد أبناء مدينة المسيلة واحد رواد حركتها الوطنية السيد بوضياف عبد الحميد ، مقالات عديدة في جريدة سريع قسنطينة la dépêche de Constantine سنة 1941-1942 ابرز خلالها الحالة المأساوية لسكان مدينة المسيلة خاصة خلال شهر رمضان ،حيث كانت الوفيات بالجملة لدرجة عجز السكان عن نقل الجثث على الأكتاف ، استعملوا العربات التي تجرها الخيول لنقل الموتى الذين يصل عددهم يوميا إلى ما يزيد عن 30 وفاة ، و كان من اثر ذلك استحداث الأهالي لمقبرة جديدة بحي الأشياخ بالمسيلة لاستقبال العدد الكبير من الأموات ، وقد صاحب هذا الوباء عوز كبير في الأقمشة و الألبسة ، حيث تجمع شهادات السكان عن عجزهم عن توفير ابسط الأشياء مثل كفن نعش الميت [44].

وفي خضم الأوضاع الاجتماعية الصعبة تخلت الإدارة الاستعمارية عن التكفل حتى بالمنشآت الضرورية للسكان في ظل عجز الإطارات الصحية ، إذا علمنا انه بين 1904 إلى غاية 1949 لم يكن بعيادة الأهالي بالمسيلة سوى طبيب واحد إلى جانب ممرضة واحدة . فتوقفت المدارس وفر المعلمون منها خاصة الأوربيون منهم خوفا وعجزا.[45]

ورغم اقتراح حاكم بلدية المسيلة المختلطة في رسالته (1943/12/20) إلى مضاعفة الطاقم الطبي للحضنة بدعم مالي اضافي فان الوضع استمر على حاله إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية 1946.

فخلال سنة 1941 ورغم الإضافة المالية لراتب الممرضة الزائرة إلى 2000 فرنك إلا أنها لم تغطي المنطقة الواسعة المترامية الأطراف ولم تقدم الإدارة خلالها من المساعدات إلى الأهالي إلا :

- 1000 متر من القماش لصنع القندورة .
- 1000 متر من القماش لصنع القميص .[46]

وحملة المساعدات التي قدمتها مصلحة الأمومة في تقرير إحصائي لنشاطها بالمنطقة سنة 1941:

- عدد الفحوص التي قام بها الطبيب 15 فحص .
- عدد الدورات التي قامت بها الممرضة الزائرة 13.
- عدد الرضع الذين فحصوا من طرف الطبيب 1912 .
- عدد القندورات التي وزعت للأمهات 133/25 قميص للرضع .
- عدد وفيات الرضع 117 أي 17% في زيادة عن 1939 .
- ارتفاع الوفيات بـ PALUDISME* بـ 98% .[47]

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية أصيبت الحضنة الغربية مرة أخرى بوباء خطير بدأ الظهور منذ يوم 22 أوت 1945 بشكل خطير و سريع ، ومن خطورته ارتفاع عدد المصابين يوميا بحيث كانت المصلحة الوحيدة تستقبل ما بين 600-300 مريض يوميا، ونفد دواء المخزون بسرعة، وتسارعت التقارير وطلبات الإغاثة بالأطباء و الدوائر إلى الإدارات المركزية بالعاصمة بعد اتساع دائرة الوباء في محيط منطقة المسيلة و الذي عرف بـ conjonctivite granuleuse .[48] وأصابت كثيرا الأطفال الذين أصيب منهم 80%. وفي حينها لم تقم الإدارة الاستعمارية بجهد يذكر من اجل الحد من انتشار الوباء ولم ترسل سوى ممرض واحد غير مختص .في 10 ديسمبر ارتفع عدد المصابين إلى 800 مصاب يوميا وتطلب الأمر تدخل الشرطة و الأمن لتداول المرضى على المصحة التي أرهقت ممرضتها الوحيدة .عمل الدكتور

الجزائري ألسماتي في تدخلاته العديدة في إطار المندوبيات المالية على طلب نقل المرضى بسرعة إلى مستشفيات المدن المجاورة كسطيف، التي قامت باستقبال و معالجة 819 مريض وأصبح الدكتور سماتي يتابع شخصيا العملية بمدينة سطيف بالتنسيق مع مديرية النظافة و الصحة .

استمرت عملية نقل المرضى بالحافلات و الشاحنات يوميا إلى سطيف إلى غاية شهر أكتوبر 1945 في ظل نقص مواد تنظيف التي انعدم وجودها بكامل منطقة المسيلة مثل الصابون و الأدوية و القماش .[49] لقد استمر تدهور الوضع الاجتماعي المرتبط باستمرار تدهور الاقتصاد الأهلي وتقلص الثروة الحيوانية واستمرار الجفاف وارتفع عدد العائلات المحتاجة رغم محاولات التضامن بين السكان في حدود إمكانياتهم[50].

وتشابهت أحوال سكان منطقة المسيلة بين الحربين في ظل استمرار الفقر والمرض ولم يحصل أي تطور يذكركما اشارت التقارير الفرنسية في مختلف الميادين ،بل استمر تضييق الإدارة الاستعمارية على السكان لمنعهم من ابسط الحقوق مثل استعمال المياه للتنظيف وتميزت هذه الفترة بسنوات حرجة من حيث انخفاض الغلات الزراعية أو ارتفاع الوفيات كما كان الحال سنة 1937 بحيث أدى وباء التيفيس الذي يرتبط بالنظافة والتغذية إلى تقلص عدد السكان بلدية المسيلة من 54.371 سنة 1936 إلى 48396 نسمة سنة 1937[51]، أي تقلص السكان بما يقارب بـ6000 نسمة وقاربت نسبة ارتفاع الوفيات لسنة 1941 مقارنة سنة 1931 بـ 48 %**52**.لقد ترتب عن هذا الوضع حالة من اليأس لدى بعض الأهالي الذين غادروا بلدية المسيلة المختلطة في اتجاهات مختلفة بعائلاتهم أو بمفردهم وكان العامل الجغرافي والعلاقات التاريخية من أهم عوامل توزيع هذه الهجرة السكانية مثل تاملوكة – سدراتة –عزابة برج بوعريريج قالمة وفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية كما اتجهت عائلات من منطقة القصابية نحو بلاد القبائل مثل تازمالت البويرة – مايو– الجزائر أقبو وكذا فرنسا.واتجهت كذلك عدة عائلات من بني يلمان نحو بلاد القبائل و متيجة ورويبة وفرنسا[53].

كما أن المتصرف الجديد للبلدية يشير في تقريره[54] نهاية الحرب إلى حالة الفقر والحرمان التي تسود المدينة و أهاليها الذين باعوا كل ما يملكون من اجل لقمة العيش[55]،في الوقت الذي استغلت فيه شركة الأهالي الاحتياطية société indigène de prévoyance الظروف في تقديم قروض وصلت إلى 1000.000 فرنك مقابل رهن الأهالي لها أملاكهم

وأراضيهم[56].كما نجد في شهادة معلم فرنسي بمنطقة الدريعات[57]ذلك الواقع المؤلم لأهالي المنطقة وأبناءهم ،بحيث يشتكي معهم الجوع والبرد ويذكر الأطفال وهم جياع لا يلبسون إلا ما يستر عورتهم ولا يجد معهم في المدرسة ولا قطعة حطب للتدفئة .

لكن هل انتهى الوضع إلى هذا الحد بالنسبة للسلطة الاستعمارية؟.لم تكن السلطة الاستعمارية ترى إلا من يأب واحد هو خدمة الأهالي لفرنسا وللمعمرين وهذا ما جعلها تفرض عقب نهاية الحرب على الأهالي بعد المرض و الفقر غرامات تقدم لمختلف الجمعيات الفرنسية في إطار إعادة أعمارها مثل:

-الجمعية الخاصة بالموظفين الإداريين للمقاطعة التي فرضت دفع 30.000 فرنك.

-المتحف التاريخي للمارشال فروشي D'esporey Frenchet مبلغ 300.00.

-فدرالية المستعمرات للمقاطعة لمركز لاصطياف مبلغ 3000.00 فرنك ،كما فرضت الإدارة المحلية على جميع الدواوير مساهمات جعلت ميزانية البلدية تحقق فائضا ماليا سنة 1945 قدر بـ 200.970 فرنك[58].[59]وكان تعمير فرنسا المنهارة نهاية الحرب بخراب المنطقة البائسة بحيث فرض عليها تقديم دعم مالي إلى الجمعية الإسلامية لإعادة إعمار فرنسا بالمسيلة قدر بـ 42.7675 فرنك قدم إلى الحكومة الفرنسية بواسطة أعيانها من القياد أعضاء الجمعية ورئيسها الأغا بوضياف علي[60].وكانت تقوم بالدعاية لها صحيفة صوت الأهالي La voix indigeneبعنوان:le vrai visage du bled.

لقد حملت الذاكرة الجماعية المحلية وصفا دقيقا أكثر مما حملته او دونته تقارير سلطة الاحتلال حول الأوبئة التي ضربت منطقة المسيلة بين سنوات بداية الاحتلال الى الحرب العالمية الثانية، سواء ما تعلق بتأثيراتها الصحية أو الاجتماعية والنفسية التي بقيت عالقة كمحطة مرجعية لحالات البؤس والشقاء الذي حل بهم بسبب الاستعمار وسياساته التي أفقدتهم كل وسائل الحماية الاقتصادية او الاجتماعية لصالح فئة المستوطنين الذين مرت عليهم هذه الحالات الوبائية بصورة عادية. وتحولت هذه الأوبئة من الكوليرا إلى التيفيس إلى الحمى القلاعية كحالات اعتيادية في افتقاد الأسر والعائلات لفلذات أكبادها من الأبناء والآباء.

1- هناك دراسات لاهم الأوبئة التي ضربت شمال افريقيا منها كتاب الطبيب قيون: الأوبئة في شمال افريقيا .
*كذلك ينظر االى: **L Guyon** :les épidémies de l'Afrique du nord, alger,1855
Marchika(j), la peste en Afrique Septentrionale, histoire de la peste en Afrique du nord ,1902
.et **Tremsal(**j) :un siècle de médecine coloniale française en Algérie 1830-1929 2è édition Tunis,1929.،

[1]

[2]**Reynaud**(l) :L'hygiène et pathologie nord africaines, Assistance Médicale, tome1, paris,1922

[3]**Marchika**(j) :op-cit,p173.

4- مسلم بن عبد القادر الوهراني:خاتمة انسي الغريب والمسافر تحقيق وتقديم رابح بونار الجزائر 1974 ص 64

[5]André Nouschi : Notes sur la médecine et la démographie en Algérie de 1840 à 1880 Annales de Démographie Historique Année 1973 1973 pp. 523-533.

[6]-CAOM (centre d'Archive d'Outre-Mer) Aix en Provence Marseille: 8H7. Occupation de Bou Saada , rapport du 12/11/1849.

7-احمد ابن العربي بن البركاتي: تقييدات الشيخ بن العربي،مخطوط غير منشور.بتاريخ ربيع الأول من عام 1285هجرية.

احمد بن العربي البركاتي :المصدر السابق ،تقييد في 1285هجرية.[8]

[9]-CAOM : 8H22, trouble dans le hodna , rapport du 23/09/1864.

[10]-ACMM (archive de la commune mixte de m'sila) : B(boite) 264, Assistance musulmanes , renseignement statistique .

[11]-ibid.

[12]-CAOM :8h7. Cercle Boussaâda, rapport du médecin de ville, médecin aide major (21/09/1867.page : 168).

[13]-CAOM : 8H7, OP. Cit page 166 .

[14]. CAOM 65k1, rapport de Mr. Le commandant supérieur (1866 – 1867).

[15]-CAOM : 65k4.rapport de Mr.Lienard. Médecin aide major 1867.

16- كتب الجيلالي صاري مقالا وكتاب حول الكارثة الديمغرافية التي ضربت الجزائر لكن لم يشير الى هذه المسالة وهي كيفية ظهور وانتقال المرض من منطقة المسيلة الى مناطق الهضاب العليا انظر:الجيلالي صاري ، الكارثة الديمغرافية،ترجمة خليل اوذاينية،طبعة دار موفم للنشر 2013.

[17]-ACMM (archive de la commune mixte de M'sila): B(boite) 87,Etat énumératif d'épidémie choléríforme du 11/08 au 8 octobre 1893-

[18]- في رسالة من سكان المسيلة الى الحاكم (1922/08/31) يشكون فيها حالهم جراء التمييز العنصري الذي كانت تمارسه الممرضة الوحيدة التي بقيت في الخدمة في العيادة وهي الفرنسية ، ضاق من تصرفاتها حتى اليهود الاهالي آنذاك

(ACMB 12/01/1944)

[19]-Edmont,Sergent et autres: Contribution de l'institut Pasteur d'Algerie à la connaissance humaine, in cahier d'outre-mer ,volume 7-8 année 1954,pp305-310.

[20]-ACCM : B 264, sante publique, lettre de l'administrateur 10/05/1949.

[21]- ACIM : B 210, –rapport du Caïd Boudiaf Med said douar dreat 24/09/1918 .

[22]-ACCM : B 90-, santé- Lettre du directeur de l'école indigène de M'sila .04/04/1912 . (choussal) .

[23]-archives de l'institut pasteur Algérie, 1923.

[24]ACMB : B264..Rapport 31/01/1936.

*تكرر حالات وباء الكوليرا بعد سنة 1910 بالحضنة (انظر المبشر عدد 5277 السنة 62 الاربعاء 24 أوت (1910

[25]- Gracchus: la famine dans le bled , la lutte sociale N° 220 , le 16/08/1923 et N°221 27/08/1923 et N°224/02/03/1923 .

[26]-I BID : 27/02/1923.

[27]-ACMM : B90 infirmerie indigène rapport du 03/01/1918

[28]-ACMM : B264 rapport quotidien (du 1904/1918) .

Archive de l'institut pasteur d'Algérie 1923 خاصة رمد العيون للمزيد انظر

[29] -مقابلات عديدة مع شيوخ المنطقة وشهادات مسجلة .

31- قدم المخرج السينمائ محمد لخضر حمينة صورة وافية عن هذاه الوضعية في فيلمه وقائع سنين الجمر و هو ابن البلدة التي اصابها الوباء.-

[31]- ACMM,B,20; (rapport de L'Administrateur 9/5/1940)

[32]- ACMM;B,20.D(dossier)1.

[33]- ACMM,B,54,D1, (lettre des caïd des douars de la CMM, 31/01/1943.

[34]-- ACMM, B, 154, lettre du caïd des douars de la CMM, 31/01/1943

[35]- ACMM، B187 (lettre des caïd des Douars de la CMM, 31/01/1943

37-دور قايد ملوزة في القبض على الجنود الإيطاليين وتسليهم لفرنسا –رسالة القايد بوضياف 25 أوت (1943ACMM : ,B257D4.)

[37]- ACMM, B187 (lettre l'Administrateur aux caïds de la commune 25/9/1943)

[38]- ACMM,B; 257 D(prisonnier de guerre détaché à l'agriculture)

[39]- la dépêche de Constantine-21-11-46) rapport de Boudiaf-Abdelhamid.

[40]- ACMM. B;54 (rapport des caïd 1941.)

[41]- ACMM. B;54 (rapport caïd de Kherabcha 2/1/1941.)

[42]- la Dépêche de Constantine 21-11-46

[43]-dépêche de Constantine 22/10/1941.

ACMM : B90 : circonscription médicale de colonisation M'sila . épidémie d'affection oculaires [44] 25/09/1945 .

[45]

46-رسالة معلم الدريعات (1941/02/12) وفيها تصوير فضيع لحال الأطفال الأهالي المعيشية ACMM/B209 ,D3

[46]-ACCM : B 211 , inspection de l'assistance publique subvention par 1943/28/08/1943

[47]- J .Clastrier : sur une Epidémie de paludisme observé à M'sila in contribution de l'institut pasteur d'Algérie : par JAMES ORIN OLI PHANT . Institut pasteur. 1962. P .31 .

[48]ACCM :B90 – circonscription médicale de colonisation d'affection oculaires 25/09/1945.

[49]-ACCM : B 133– assistance aux mères et aux nourrissons. Rapport .25/05/1945 .

[50].-A.C.M.M: B, 18.1927/01/18 مثل تكوين أهالي المسيلة الجمعية الخيرية الإسلامية

[51] -استمرار سنوات الجفاف بين 1921-1927 وأمراض التنفيس 1921-1937 في الوقت الذي لم يكن يوجد بالبلدية إلا طبيب متنقل من البرج [ين سالم عيسى] بين 18-1924.(ACMM :b,88D4)

[52]- ACMM. B18.rapport administrateur. (5-09-1940)

[53]- ACMM. B;133(Rapport des caïd 9/1/1941).

[54]- ACMM. B;89 (rapport de L'Administrateur3/3/45)

[55] 56-تشير الكثير من الشهادات إلى بيع السكان لأراضيهم الواسعة من اجل لقيمة العيش(لقاءات مع اعيان البلدة)

[56] 57-تشير الرسالة الثانية إلى حرص التلاميذ (21) على التعليم ومساهمة أهاليهم في تموين مطعم المدرسة -الوحيد بالبلدية المختلطة للمسيلة بمواد : الملح-البصل-الحطب والخضروات

[57]- ACMM. B,154 (lettre de l'instituteur de l'école de Dreat a l'Administrateur 27/03/1941.

[58]- ACMM. B,53,D1,

59

60-للإشارة فإن الميزانية البلدية استمرت منذ مدة طويلة تحقق فائضا ماليا بسبب قلة الاتفاق والضرائب العديدة على السكان.ACMM، B,87,115.